المقال الثامن عشر

وما أدراك ما القدس والمستوطنات !!*

منذ اقتحم بنيامين نتنياهو دور القيادة فى إدارة عملية السلام العربى الإسرائيلى تنامى المد فى تأكيد الحلم الصهيونى على أرض الواقع ، وبخاصة فى السعى إلى ترسيخ مقومات الاحتلال الاستيطانى ، وتعرضت الجهود لاستعادة حقوق العرب فى فلسطين والجولان وجنوبى لبنان إلى الجزر ، أو التجميد فى أحسن الحالات . والوقع أن هذا العُتُل المغرور لم يكن إلا استمراراً لسياسة سلفه فى (تحرير أرض الميعاد لشعب الله المختار) ، وإن كان أكثر منهم صلفا وأعلى صوتا ، وأكثر تحديا لكل قرارات الشرعية الدولية والاتفاقيات التى تلت مؤتمر مدريد ، مؤسسة لعملية التسوية على مبدأ الأرض مقابل السلام .

لكن أيديولوجيته الصهيونية لم تختلف كثيرا ولا قليلا عن كل ما احتضنه قادة إسرائيل السابقون من إدعاءات ومبررات وإرهاب فى

---

* مقال نُشر فى أوائل ١٩٩٧ لتوضيح استمرار السياسة الاسرائيلية فى احتلال الأرض وتهويد القدس .

الحرص الشديد على ما انتشلوه بالقوة . وليس قرار بناء الحى اليهودى فى جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية العربية ، وصيحاته المتكررة بأن القدس بقسميها هى عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ، وغير المطروحة للتفاوض ليس فى هذين الحدثين إلا استمرار يؤكد أن شيئا لم يتغير تغيرا يذكر منذ مؤتمر مدريد . وسوف نشير فيما يلى إلى بعض المقولات التى رددها قادة الحركة الصهيونية فى إسرائيل وخارجها، مما يدعم مطامعهم فى أرض إسرائيل الكبرى (أرتس إسرائيل) .

التمسك بالأرض أولا وأخيرا

من أهم دعائم العقيدة الصهيونية والغزو الإسرائيلى عدم التفريط فى أى جزء من الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ . وفى هذا الصدد يقول مناحيم بيجن :

(إن من لا يعترف بحقنا فى الوطن كله (كل الأراضى الفلسطينية إذ ذاك) لا يعترف بحقنا فى أى منه . هذا ما يجب علينا أن نبحث عنه ونحلله بعناية) .

يقول أيضاً : (حدود إسرائيل هى حيث يشعر جنودها بالأمان . وفى عام ١٩٦٩ تقول جولدامائير . إن حدود إسرائيل تنتهى عند الأماكن التى يقيم فيها اليهود فى الأرض المحتلة ، وليس الخطوط الموضحة بالخريطة) .

وها هو الحاخام الأكبر يقرر عام ١٩٧٠ (لقد وعدنا الله بالأرض

وتنبأ جميع الأنبياء بعودتها إلينا ، ولذلك يحظر على أى يهودى إعادة أى جزء من أرض أجدادنا) .

عن القدس

تبدأ الرغبة فى الاستيلاء عليها منذ أيام هرتزل أحد مؤسسى الحركة الصهيونية الكبار، إذ يقول (إذا حصلت يوما على مدينة القدس ، وكنت ما أزل حياً وقادرا على القيام بأى شىء ، فلن أتوانى لحظة عن إزالة كل شىء ليس مقدسا لدى اليهود فيها ، وسوف أدمر كل الآثار التى مرت عليها قرون) . المقصود طبعا الآثار الإسلامية والمسيحية . وتتأكد هذه الأهمية القدس فى مقولة بن جوريون : (لا معنى لفلسطين بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون الهيكل) .

وبعد أسبوع من حرب ٦٧ يخطب بيجن قائلا : (لابد من إحضار اليهود إلى القدس الشرقية مهما كان الثمن ، لابد من توطين ١٠,٠٠٠ من اليهود خلال فترة قصيرة ، ولو أسكناهم فى أكواخ ، فلا ننتظر بناء أحياء جديدة لهم ، فأهم شىء هو أن يصبح لليهود وجود هناك) .

محاولات الاعتداء والتدمير

وتجىء هذه المعتقدات السياسية وتبريراتها الدينية لعديد من المحاولات للهجوم على المسجد الأقصى ، وتدنيسه وانتهاك حرماته فى أحداث كثيرة وبصور متعددة لا تحصى. ولعل أفظع تلك الاعتداءات ما حدث صبيحة الخميس ٢١ / ٨ / ٦٩ من جريمة حريق المسجد

الأقصى ، التى أحدثت أضرارا جسيمة بالأبواب والأسقف والمنابر والسجاد والزخارف ،وغيرها من التحف الأثرية . وإلى جانب هذه الجريمة التى قام بها الأسترالى مايكل روهان جاءت بعدها محاولة الأمريكى ألن جولدمان، ومحاولة ١٩٨٤ ، ثم أحداث إطلاق الرصاص على المصلين سواء فى المسجد الأقصى، أو فى الحرم الإبراهيمى ، مما تختزنه الذاكرة مضيفا إلى جروح العربى والمسلم ، بل وكافة بنى البشر مما يمكن أن يحدثه الإرهاب الصهيونى .

لقد وجدت هذه الأعمال الوحشية الفاشية واستنكار العالم والأمم المتحدة لها تبريرات من الأيديولوجية الصهيونية التى رددها زعماؤها السياسيون والدينيون . وفى هذا الصدد يقول إسحق شامير رئيس الوزارة الإسرائيلية الأسبق (فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الاخلاق ولا التقاليد اليهودية تنبذان الإرهاب بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع . لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب . وفى التوراة جاء : امحقوهم عن آخرهم ، أبيدوا حرثهم ونسلهم) . إن إرهابنا يلعب دوراً كبيرا فى معركتنا هذه ، إنه صوت عال بحيث يسمعه العالم بأسره ، وكذلك أشقاؤنا التعساء خارج هذه البلاد) .

ولإسحق رابين وزير الدفاع الأسبق ومنظر فكرة تجويع الفلسطينيين وتكسير عظامهم نفس المنطق ، إذ يقول (إنه يمكن وضع القانون جانبا من خلال ما يفعله اليهود) .

والواقع أن تجاهل أى قانون دولى أو أخلاقى مسألة مشروعة ، طالما أنها تحقق هدفا أو مكسبا صهيونيا . وفى مقولة الصحفى اليهودى دورون روزنبلوم ما يدل على إمكانية تبرير أى عمل إرهابى ، حتى مع استنكاره المشروط بمنطق (تفهم الحوافز) . وفى صدد محاولة نسف المسجد الأقصى عام ١٩٨٤ يشير هذا الصحفى إلى (إن الواقع الإسرائيلى يسمح ـ مع مرور الزمن ـ بنقل أبشع الأفكار ، واعتبارها أفكاراً معقولة . إن فكرة جنونية ما ، لدى يمينى متطرف ، سرعان ما تتحول من كونها مجرمة إلى جنونية ، ومن جنوينة إلى غريبة ، ومن غريبة إلى خاطئة ، ومن خاطئة إلى ممتازة . ومن فكرة ممتازة إلى الواقع . . إن المسألة مسالة وقت . . إن كل فكرة تومض فى العقل شريطة أن تكون متعصبة قوميا ويمينيا ، لا تصبح أمرا واقعا فحسب ، بل تقبل رسميا كإجماع قومى) . ويسوق لمثل هذه الأفكار الجنونية الغربية حرب لبنان التى كانت مستبعدة من كل تفكير قبل سنتين من وقوعها ، والتقى فيها العمل (بيريس / رابين) مع الليكود وشامير .

ونشير نحن إلى انتخاب نتنياهو ذاته فى هذا السياق

تحدى الشرعية الدولية

ولعله من الضرورى هنا أن نشير ـ فى ضوء ما سبق ـ كيف تحدت إسرائيل كل قرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة فى شأن عدم مشروعية بناء المستوطنات، أو فى بطلان القانون الأساسى الذى أقره الكنيست من اعتبار القدس عاصمة إسرائيل الموحدة

والأبدية ، وما تتخذه من إجراءات لتهويد القدس . ولم تقتصر الاستهانة بالشرعية الدولية على إسرائيل فى الداخل ، بل إن أنصارها فى أمريكا يدافعون عن مواقفها ، إذ يقول أحد الكتاب الأمريكيين هوارد ساشير إن الأمم المتحدة مجلس تتصايح فيه دول العالم الثالث العدوانية ، والتى تتألف من غالبية أفريقية أسيوية شيوعية من الأعضاء) .

وقد أصدرت الأمم المتحدة مجموعة من القرارات فى إدانة المستوطنات الجديدة فى الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، بما فى ذلك القدس . ولعل أكثر تلك القرارت مدعاة للالتفات قرار مجلس الأمن رقم ٤٦٥ بتاريخ أول مارس ١٩٨٠ والذى دعا فيه حتى إلى إزالة المستوطنات القديمة . ومما تجدر ملاحظته هنا موافقة الولايات المتحدة الأمريكية على هذا ، فى حين أنها دأبت على عدم الموافقة على قرارات سابقة ولاحقة تدين عدم مشروعية إقامة المستوطنات ومخالفتها لأحكام القانون الدولى واتفاقيات جنيف .

كذلك نشير إلى معارضة مجموعة الدول الأوروبية لسياسة الاستيطان فى إعلان البندقية الصادر فى يونيه ١٩٨٠ ، حيث تقرر بتلك المجموعة بأنها (مقتنعة تماما بأن المستوطنات الإسرائيلية تشكل عائقا خطيرا أمام عملية السلام فى الشرق الأوسط وتعتبر الدول التسع هذه المستوطنات ، وكذلك التعديل فى التركيب السكانى والممتلكات فى الأراضى المحتلة ، إجراء غير شرعى بمقتضى القانون الدولى) .

ورغم ذلك كله يظل نتنياهو يردد مقولة موشى ديان (إن المستوطنات

سوف تبقى إلى الأبد ، وسوف تضم الحدود المقبلة هذه المستوطنات كجزء من أرض إسرائيل) وبذلك تصبح كل الأراضى العربية المحتلة فى فلسطين (يهودا والسامرة) أراض إسرائيلية (محررة) . وهل اختلف نتنياهو عن شمعون بيريز حين يقول (ليس ثمة جدل فى اسرائيل بشأن حقوقنا التاريخية فى أرض اسرائيل... إن الماضى ثابت ومستقر كما أن التوراة هى الوثيقة الحاسمة فى تحديد مصير أرضنا) . فهل يظل الوهم بأن ثمة فرقاً بين حزب العمل والليكود بشأن موضوع المستوطنات ، بل والقدس كما سبقت الاشارة إلى ذلك . وفى كل يوم رغم الاتفاقيات ، تتجسد على أرض الواقع أحلام الصهيونية التى ظلت تزحف زهاء نصف قرن على الأرض العربية ، وما زلنا نصدر بيانات الشجب والإدانة وتعويق مسيرة السلام .

أمريكا الشريك المنحاز

لقد أثبتت قضية الصراع العربى الإسرائيلى منذ قيام دولة واسرائيل بانحيازها الكامل إلى إسرائيل فى كل ممارساتها من احتلال الأرض واضطهاد الشعب والشواهد كثيرة لا تحصى ، اذكر فحسب بما حدث خلال شهر مارس ١٩٦٧ حين بدأت جرافات نتنياهو تمهد لبناء مستوطنة جديدة على جبل ابو غنيم رغم كل المواثيق والاتفاقيات . خلال هذا الشهر استعملت الولايات المتحدة الأمريكية وحدها حق الفيتو (النقض) مرتين فى مجلس الأمن ضد إدانة بناء مستعمرات جديدة، متحدية بذلك بقية أعضاء المجلس الأربعة عشر . وكذلك

كان صوتها فى الجمعية العمومية فى معارضة ذلك القرار مع اسرائيل وكوستاريكا .

وقد اطلعت على إحصائية لعدد المرات التى استخدمت فيها حق الفيتو ضد القضية الفلسطينة والاحتلال الجولان وجنوب لبنان ، فى الفترة من ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٦ بلغ جملة حق النقض فى مجلس الأمن الذى مارسته الولايات المتحدة (٤٥ مرة) فى جميع القضايا المعروضة على ذلك المجلس ، وكان نصيب قضايا الصراع الغربى الاسرائيلى (٢٠مرة). وبينما شاركتها بريطانيا وفرنسا فى بعض القضايا الأخرى ، انفردت هى وحدها باستعمال حق النتقض فى القضايا العربية ، بما فى ذلك الاعتداءات على المسجد الأقصى وتدنيس الحرم الشريف بالقدس وضم مرتفعات الجولان وغزو لبنان ، واعتراض الطائرات الحربية الاسرائيلية للطائرة المدنية الليبية فتسقطها وتكون المذيعة القديرة سولى حجازى من بين الضحايا .

ذلك هو موقف الولايات المتحدة كما يعسكه استخدامها لحق النقض إزاء الاحتلال الإسرائيلى وممارساته الفاشية ، إنها تكيل بكليلين ، وتغمص عينها .

حين لا تدين الإرهاب الاسرائيلى لأنه دفاع عن النفس ، وتفتح عينها وفمها حين يقاوم العرب الاحتلال والطغيان الإسرائيلى . وليس بمستغرب على الاطلاق حين يعلن كاسير واينبرجر وزير الدفاع الأسبق

أن اسرائيل بالنسبة لامريكا (حاملة الطائرات التى لا تغرق) ترسل الطائرات التى نزودها بها امريكا لضرب المفاعل الذرى فى العراق وللاعتداء على مواقع القيادات الفلسطنية فى تونس ، وتهدم القرى وتروع السكان فى جنوب لبنان .

أما بعد

تلك بعض الشواهد من أفواه قيادات الصهيونية وأعوانها ، حاولنا جمع بعضها تنشيطا لذاكرة الأمة ، توضيحا لما خطر لبعضنا من أن ثمة فرقا جوهريا فى الآراء السياسية نحو القضية الفلسطينية بين الليكود والعمل .

وما مواقف نتنياهو منذ مجيئه إلى السلطة الا تعبيرا صارخا ومعجرفا عن تلك الأيديولوجية الراسخة فى الثقافة الصهيونية . كذلك نتساءل ماذا جرى لمرجعيات عملية السلام من قرارات الأمم المتحدة والمجتمع الدولى واتفاقيات أو سلو والقاهرة ، وما تلاها من بروتوكولات هل ذهبت كلها إدراج الرياح ؟ كما نتساءل عندما يكون قاضيك منحازا فإلى من تشكو ، وممن تطلب الإنصاف ؟ إن الخروج من هذا المأزق ونفقه المعتم يتجسد فى قول الشاعر كما لو أنه موجه إلى الأمة العربية كلها .

ما حـك جلـدك مثل ظفـرك فتـول أنـت جميـع أمـرك

والسلام العربى لا يصنعه إلا العرب . . .